# الروايات التاريخية في كتابات الرحالة المسلمين في العصر العباسي بين الأسطورة والحقيقة (دراسة تحليلية)

أ.م.د. نوفل محمد نوري
*كلية التربية/ قسم التاريخ/ جامعة الموصل*

**تاريخ تسليم البحث: 2011/3/23 ؛ تاريخ قبول النشر: 2011/5/15**

## ملخص البحث:

حاول البحث تقديم رؤية تتعلق بأثر المرويات التاريخية في التكوين الثقافي للرحالة المسلمين وانعكاسها على رواياتهم اوفي طريقة توصيفهم لمشاهداتهم وما يروى من حكايات على مسامعهم .

عالج الباحث تلك الرؤية من خلال الوقوف على مدونات تعد احدى مصادر المعرفة التاريخية ،محاولا رصد ما هو مقبول تاريخيا، واخر ما عد اسطورة في مرويات الرحالة للمكان الذي يحاول تصويره ،اذ غالبا ما سيقت تلك الحكايات –دون تمحيص –بشكل اوبأخر الى الثقافة الاسلامية وتم أعتمادها من قبل العديد من المؤرخين بوصفها حقائق تاريخية ،في وقت اشبعت تلك الروايات جانبا من خيال الرحالة ، لاسباب تتعلق بأظهاره العجائب من الاخبار ،والفريد من الظواهر ، والغريب من القصص والتي انفرد الرحالة في مشاهدتها او الوصول اليها دون سواه، اوفي سماع الغريب من الاخبار عند مروره بالبلاد، يكون الغرض منها تشويق السامع على حساب الدقة والحقيقة التاريخية احيانا، وحاول البحث الوقوف على ثلاثة مستويات لروايات الرحالة ، المستوى الاول كان فيها الرحالة قد اسقط في رحلته كل ماسمعه من قصص واخبار وتصوير ظواهر عن البلاد التي مر بها والتي قصها عليه كبار القوم ،اوما عد جزءا من ثقافة المكان ،ولم يحاول الرحالة ان ينقدها او يفند بعضها ، بل اكتفى بسردها ،والمستوى الثاني حاول الرحالة ادراج ما اعتبر تاريخا حقيقيا مع ماهو اسطورة لايقبله العقل او المنطق ،والغاية منها اكمال الصورة التاريخية للحدث ،اما المستوى الثالث من تلك الروايات فقد تميز بالدقة في التوصيف والامانة في نقل الخبر والمشاهدة والتحري للحدث قبل تدوينه، اذ كان لثقافة الرحالة ودرجة وعيه ومدى قبوله للاساطير من عدم قبولها اثرا في انسياب تلك الروايات الى رحلته.

الا ان ذلك الامر لايعني الاستغناء عن هذا النمط من المؤلفات ،اذ ان الرحلة وبمختلف مستوياتها تبقى رافدا مهما للمعرفة التاريخية شرط ان تمحص نصوصها وفق منهج البحث التاريخي الرصين لما فيها من معلومات تاريخية قيمة والتي لا نجد الكثير منها في انماط اخرى من المصنفات التاريخية .

# Historeal Novels In The Writing Of Muslims Voryagers In Abbassid Era Between Myth And Really *(Analytical Study)*

**Asst. Prof. Dr. Nawfal Mohammed Nouri**
**University of Mosul/ College of Education/ History Dept**

## Abstract:

The research attempts to introduce an insight into the effect of the historical account, on the cultural formation of the Muslims travelers and their reflection on their account or upon the way of discrepancy what they he saw and beard.

It handle, this subject through discussing some recording, which are regarded as one of the sources of historical knowledge, thereby attempting to show what is historically acceptable. These stone, entered the Islamic culture without close examination which some historians adopted as historical facts. Meanwhile, they were characterized by the travelers imagination for reasons related to present mirculas news and sense. The research also deals with three level, of the travelers accounts. The first level handle, the news head by the travelers without criticizing or refuting them. The second level presents how the travelers tried to insert what is considered real history beside what is a myth. The third level, on the other hand, is characterized by precision when reporting the new, and investigation into the event.

However, this does not mean dispensing with this kind of composition, because travel remains an important source of historical knowledge on the condition that its test are closely examined according to the authentic historical investigation.

## تمهيد

شكلت الرحلة عنصرا هاما من عناصر البناء الثقافي للحضارة العربية الاسلامية لدورها المهم في ايصال المعارف التي يتحقق من خلالها الاحتكاك الحضاري بين الامم ، كما اسهم التنويع في مهمات الرحلة في اثراء المعرفة الوصفية منها والجغرافية منذ نهاية القرن الثالث الهجري وحتى القرن السابع للهجرة ، وكانت الحاجة إلى معرفة المسالك والخطط بين البلاد الإسلامية ذاتها وبينها وبين البلاد المجاورة لها والبعيدة عنها سبباً آخر للرحلة ، فضلاً عن الدوافع الدينية للرحلة كالحج ، كما أن الرحلة في طلب العلم كانت سبباً آخر لها [1]، فضلاً عن الدوافع التجارية ، والاستكشافية،أو تلك الرسمية التي يكلف أصحابها من قبل الخلافة [2]. إلاّ أن مختلف تلك الرحلات لم تكن تخلو موضوعاتها وطرائق وصفها للاحداث بشكل اوبآخر من مبالغات أواعمال للخيال في رسمها للظواهر لدى الرحالة على وفق ثقافته وتحليله لما يشاهده، اوفي تفسيره للسلوكيات التي رأها او سمعها في رحلته من أناس مرَّ ببلادهم ، واذا ما كانت الأسطورة هي الأخرى قد تناقلتها الشعوب من خلال ادبياتها والتي وجدت في ثقافة الرحالة مدخلا اختلفت اشكالها بحسب المستوى والبيئة الثقافية بين رحالة وأخر ،والتي طغى على اغلبها الرموز والاشارات التي لاتكاد تخلو من حقائق تاريخية غير واضحة في تأويلها، إلاّ أنها نسبيةً ولا يعول عليها في وصف حقيقة تلك الظواهر ، سوى أنها أسهمت في تفسير سلوكيات وطقوس الناس من خلال معتقداتهم وتصوراتهم لطبيعة القوى المؤثرة في نفوسهم ونظرتهم للحياة ولا سيما الشعوب التي لم تصلها الرسالات السماوية كالإسلام ، إلاّ أن من الغرابة بمكان أن نجد تلك القصص والحكايات ومع ما يشوبها من اساطير تسللت إلى الثقافة الاسلامية عبر قنوات عديدة كانت احداها كتابات الرحالة والجغرافيين، تجسد ذلك من خلال تصوير مشاهداتهم احيانا اوسماعهم لها حتى باتت وكأنها جزء من ثقافتهم التي ينتمون اليها دون تمحيص للجوانب التي لا تتفق مع منطق الفطرة ونداء الدين اوالعقل بقدر اهتمامهم بأذكاء القصص التي تتضمن عنصري التشويق والمفاجأة والذي بات هاجساً لدى العديد منهم في تصويرهم لتلك المشاهد لتكون لرحلاتهم قيمة ومآثر تذكر ولاسيما اذا ماكان الرحالة اوصاحب الكتاب نديما للخليفة او السلطان او اذا ما كانت بتكليف مباشر من الخلافة ، والتي غالبا ماينفق الخليفة على رحلاتهم اموالا طائلة فلا يستطيع الرحالة العودة صفر اليدين دون انجاز ماكلف به في الوصول الى اقصى مكان ارسله اليه ، لذلك نجده وهو ينقل مشاهداته

---

[1] حسين، محمد فهيم ، أدب الرحلات ، ( الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون، عالم المعرفة : 1989)، ص 13؛ زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في القرون الوسطى، ( مصر: 1945)، ص7.

[2] نقولا زيادة ، الجغرافيون والرحلات عند العرب ، ( بيروت ، دار صادر : 1962 ) ، ص 43 .

يحاول أن يعظم صغائر الأشياء أحياناً ويسترسل في وصف مظاهر، ويعمم تقييمه لثقافة هذه البلاد أو تلك من خلال مروره بها ومكوثه فيها يومين أو ثلاثة ،إذلا يمكن تقييم ثقافةأي مجتمع اورسم شكل التقاليد والعادات الخاصة بهم بالبقاء بينهم أياماًمعدودة أو الاستماع إلى قصص وحكايات كبار القوم ،وهذه إحدى المأخذ على روايات الرحالة التي فيما بعد اسهمت فيما بعد بشكل سلبي من خلال اعتمادها مصدرا تاريخيا دون تمحيص وتدقيق لصحة نصوصها،والتي يجب مقارنتها بالنصوص التاريخية المعتمدة ، كما نجد صيغة التعميم لدى هذا الرحالة أو ذاك في وصف سلوك أهل مدينة أو الكورة او القصبة في وقت لا يتعدان يكون هذا المظهر حدثا عارضاً، حصل حين مرّ الرحالة بالمدينة، إلاّ أن ذلك الحكم في المقابل لا يمكن تعميمه على كل مشاهدات الرحالة ، إذ أن في العديد من صور وصفهم للحياة السياسية أوالاجتماعية أو الاقتصادية لبلد ما تمتلك توثيقا ودقة لا نكاد نجدهما في كتب التواريخ العامة اوالمحلية منها ، وتبقى جملة مؤثرات لها علاقة مباشرة بحياة الرحالة ونشأته العلمية وثقافته واعداده المسبق، لها الدور المهم في طريقة تناوله لهذه الحكاية ووصفه وتحليله لها ، اوفي ومدى اعمال خياله من عدمه في نقل مشاهداته أو ما سمعه عند مروره بهذه البلاد.

و قبل الوقوف على النصوص التاريخية التي وردت لدى الرحالة والتي اختلط بها الواقع التاريخي مع الموروث الثقافي للبلاد مع وجود الاسطورة من جهة ، او الحكاية الشعبية من جهة اخرى ،لا بد من تعريف الاسطورة واهميتها في ثقافة الشعوب،والوقوف على مفهوم الحكايات الشعبية التي هي الاخرى كان لها بصمة في كتابات الرحالة وان اختلف مفهومها عن مفهوم الاسطورة الا ان في كتب الرحلة تختلط معها اوتاتي بوصفها حلقة ثالثة بين الواقع التاريخي والاسطوري .

## مفهوم الأسطورة عند القدامى والمحدثين

الاسطورة لغة هي أُحْدُوثَةٌ وأَحاديث وسَطَرَ يسْطُرُ إذا كتب ، كما جاء في تعريف الاساطيرعلى انها: الأَباطِيلُ والأَساطِيرُ أَحاديثُ لا نظام لها واحدتها إِسْطارٌ وإِسْطارَةٌ بالكسر[1] ، ويرى الباحثون ان التفكير الأسطوري ما هو الا تصور غير علمي خلافاً لما يعتقده علماء الميثولوجيا الذين اعطوا للاسطورة دورا مهما في تفسير حركة التاريخ –كونه تفكير غير قادر على الاستقصاء والتجربة أو الترابط بين سلسلة العلل والمعلولات ، بل هو تفكير ذو طبيعة تدخل فيها الخوارق ويؤمن بالتأثير المتبادل بين الظواهر عن طريق التشاكل والتشابه والتداعي[2]، ولا سيما عندما أَوَّلَ الانسان قضية الخلق ، ومسألة الصراع بين الخير والشر، والعلاقة بين قوى الطبيعة العليا وأثرهما في الانسان [3] ، وطالما أن الانسان بطبعه يخشى ما يجهله أو ما لا يستطيع اخضاعه لسلطانه فيظل أسيراً للطبيعة من تضاريس ومناخ وما يصاحب ذلك من عوارض مما ينشئ بينه وبينها علاقة وجدانية ، فنجده يتذلل لمظاهرها احيانا ويتضرع إليها ويخشى غضبها ، وهذه العلاقة لا يمكن أن تفسر على اساس كونها اسقاطا ورغبة في اتحاد الانسان بالطبيعة واندماجه فيها [4] .

لقد وجد الفكر الأسطوري متنفساً في الآداب الملحمية القديمة ، إذ لا نكاد نجد ملحمة من ملاحم الشرق والغرب إلاّ ووجدنا فيها خضوع الإنسان لقوى الطبيعة ،وكذلك الحال فيما يخص الحكاية الشعبية ، إذ شغلت

---

(1) ابن منظور ،محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب،( بيروت ، دار صادر : د.ت) :363/4.

(2) راثفين . ك . ن ، الأسطورة ، ترجمة : صادق الخليلي ، ( بيروت ، منشورات عويدات :1990 ) ، ص 76 .

(3) أحمد كمال، زكي ، الأساطير . دراسة حضارية مقارنة، ( بيروت ، دار العودة :1974) ، ص 12.

(4) قيس النوري ، الأساطير وعلم الأجناس ، ( الموصل ، مطبعة الجامعة : 1980 ) ، ص 17 .

الأخيلة جانباً كبيرامن أدب الرحلات عند المسلمين وعند غيرهم [1] ، وهي غالباً ما تعتمد على مدى سعة فضاء ذهن الرحالة ، وغالباً ما تأتي تصوراته بعد تصديقه لما سمعه من قصص وحكايات شعبية فيحاول بعدها فك رموز تلك القصص ويبني عليها ويعلل الظواهر من خلالها والتي تاتي أحياناً من خلال موروثه الثقافي والبيئي ، كي يصيغها بالنهاية بطريقة جديدة قد تتلائم مع قناعاته التي تشكلت بعد سماعه هذه القصة اوتلك ، وبذلك يسهل اختراقها في محيطه الثقافي.والحكاية الشعبية هي بقايا المعتقدات الشعبية وتأملات الانسان الحسية وطريقة في النظرة الى الحياة، حينما كان الانسان يحلم لانه لم يعرف ، وحينما كان يتصور لانه لم يكن يرى حقائق الاشياء، وحينما كان يؤثر فيمن حوله بروح ساذجة ، كما اعتقد البعض ان الحكاية الشعبية هي شكل من اشكال التعبير عن الروح الانسانية بمستويات مختلفة [2] .

## روايات تاريخية لدى الرحالة غلب عليها الاساطير

لاشك في ان منهج الكتابة عند الرحالة يختلف عن اسلوب الصناعة التاريخية عند المؤرخ اذ لايتقيد الرحالة بطريقة المؤرخين في عرض الحوادث ولايعتمد الاسلوب الزمني على غرار الحوليات، ولايجد البعض منهم نفسه ملزما بالتدقيق بسلاسل اسناد رواياته سوى اعتقاده ان ماسمعه يكفي احيانا كي يدون في رحلته ،وهذا الامر لاينطبق على كل الرحلات فمنذ نهاية القرن الثالث للهجرة وبدايات القرن الرابع بدأت رحلات تجارية احيانا واستكشافية احيانا اخرى ، ولا سيما تلك التي توجهت الى اقصى الشرق في بلاد الهند والصين ،اوتلك المتوجهة شمالا الى بلاد البلغار، اوالى جزر البحر المتوسط ،ومنها وهو النادر ما كان متوجها الى واوربا شمالا ،قام بها على الاغلب رحالة اندلسيون ومغاربة بحكم الاحتكاك الجغرافي معها ، وإذا ما كان العديد من التجار العرب المسلمين لم يحاولوا تدوين سفراتهم التجارية ومشاهداتهم لتلك البلاد ،اما بحكم تاكيدهم على الوازع المالي والكسبي الذي كان سببا في رحلاتهم ، اذ جاء الحديث عن رحلاتهم في سياقات مختلفة ، اما وردت بصيغة رسائل دونوها ،او نقلت شفاها جيلا عن جيل لتدون لدى المتأخرين منهم ،أو جاءت في اثناء كتب المسالك والممالك ، كتلك التي وردت في كتابات ابن خرداذبة وابن حوقل الجغرافية وغيرهما للوقوف على طبيعة صياغة تصورات الكتاب من الرحالة لطبيعة الحياة في البلاد التي ذكرت في مدوناتهم ، إذ يروي ابن خرداذبة ( ت:280هـ/893م) ، في كتابه المسالك والممالك حكايات عجيبة عن مخلوقات غريبة لم نسمع عنها الا في الاساطير ،ومنها ما ساقه من خبر عن وجود افاع في جبال تدعى جبال الزابج، يصعب وصف حجمها وشدة قوتها وهي كما يصفها حيّات عظام تستطيع بلع الرجل والجاموس، ومنها ما يبتلع الفيل كما يروي ، كما يصف شجرة كافور كبيرة كانت في تلك الجبال ذاتها وهي عظيمة جدا وانها تستطيع ان تظلّ مائة إنسان وأكثر ، كما يصف الكافور في هذه الشجرة الذي ينقب عليه من أعلى الشجرة فيسيل منها من ماء الكافور عدة جرار، ثم ينقر أسفل من ذلك وسط الشجرة فينساب منها قطع الكافور وهو صمغ ذلك الشجر ،وفي هذه الجزيرة عجائب كثيرة لا تحصى [3].ولا نجده يحاول التدقيق في صحة تلك الروايات من ضعفها سوى اعتماده على ما يتناقله الناس من حديث سمر اوما سمعه عند مكوثه هنا اوهناك ،وفي سياق حديثه عن عجائب الدنيا ،يذكر انها اربع عجائب ، احداها في الاسكندرية بمصر، والاخرى في ارض عاد، والثالثة في الاندلس ،والرابعة في ارض بيزنطة بقوله

---

[1] دي لاسي ، أوليري ، الفكر العربي ومركزه في التاريخ ، نقله إلى العربية : اسماعيل البيطار ، ( بيروت ، دار الكتاب اللبناني : 1972 ) ، ص 43 .

[2] دي لاسي ، أوليري ، المرجع نفسه، ص 58 .

[3] أبو القاسم ، عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ( ليدن : 1306 هـ ) ، ص 16 .

:عجائب الدنيا أربع، ممرات كانت معلقة بمنارة الإسكندريّة كان يجلس الرجل تحتها فيرى من بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر .وفرس من نحاس كان بأرض الأندلس قائلاً بكفيه كذا باسطاً يده أي ليس خلفي مسلك فلا يطأ تلك الأرض أحد إلا ابتلعته النمل.ومنارة من نحاس عليها راكب من نحاس بأرض عاد فإذا كانت الأشهر الحرم هطل منها الماء فشرب الناس وسقوا وصبّوا في الحياض فإذا انقضت الأشهر الحرم انقطع ذلك الماء .وشجرة من نحاس عليها سودانية من نحاس بأرض رومية، فإذا كان أوان الزيتون صفرت السودانية التي من نحاس فتجيء كل سودانية من الطيّارات بثلاث زيتونات زيتونتين برجليها وزيتونة بمنقارها حتى تلقيها على تلك السودانية النحاس فيعصر أهل رومية ما يكفيهم لآدامهم وسرجهم سنتهم إلى قابل [1].

وفضلا عن اعتماد المؤلف على رحالة مجهول الاسم يصف تلك المواقف اذ لم اقف له على ترجمة توضح شخصية هذا الرحالة الذي ينقل عنه واسمه سلام الترجمان والذي يصفه ابن خرداذبه على انه كان يجيد ثلاثين لسانا ،اذ ينقل عنه رحلته والتي بدأت عام 227 هـ / 842 م في اولى تلك الرحلات إلى بلاد الصين [2] ، حين خرج بأمر الخليفة الواثق بالله (ت:232هـ/847م)، اثر منام رآه الخليفة والذي مفاده أن السد الذي بناه الاسكندر ( ذو القرنين ) ليحول دون تسرب يأجوج ومأجوج إلى ديار المسلمين مفتوحاً،فرأى الخليفة أن يرسل في أمره ويتأكد من ذلك خشية ان تتحقق رؤياه، وقد ندب لهذه المهمة سلاما ومعه خمسون رجلا ومالا كثيرا يعينه في سفره مع من خرج معه ، [3] ، وقد وصل سلام هذا بعد رحلة طويلة إلى الصين ليروي مشاهدته السد الذي بناه ذو القرنين [4] ، فيذكر من خلال رحلته عددا من الأماكن التي شاهدها في طريقه حتى وصوله السد ، ثم يتحدث عن السد فيصف بابه ، والحراس الذين يحفظونه[5] . ثم يورد سلام الترجمان قصة حول سؤال أهل تلك البلاد هل رأوا يأجوج ومأجوج ، اذ قال " ان اهل المكان الذي فيه السد رأو عددا منهم ، وان طول الواحد منهم شبرا ونصف الشبر [6] .

ولم تثبت صحة نقولات ابن خرداذبة تلك في ما نقله عما سمعه اوشاهده سلام من قبل رحالة اوجغرافيين آخرين سوى اعتماده حكايات شعبية لأهل تلك الأماكن، الا ان خطورة روايات كهذه تكمن في انها انسابت الى اقلام مؤرخين مرموقين لم يجدوا رواية بديلة عنها ،وقد نقل رواية سلام الترجمان عن ابن خرداذبة كل من ابن الجوزي وياقوت الحموي وابن الوردي والحميري وغيرهم [7]، اما ابن الجوزي(ت:597هـ/1201م) فقد بدا مترسلا في نقل القصة دون تعليق وهو يتحدث عن رحلة الاسكندر الكبير اذ استعان ابن الجوزي بنصوص وردت في الاحاديث الشريفة عن علامات ظهور يأجوج ومأجوج ثم قام بربطها بخبر مشاهدات

---

(1) ابن خرداذبة ، نفسه ، ص 27 .

(2) ابن خرداذبة ، نفسه ، ص 193 .

(3) ابن خرداذبة ، نفسه ، ص 164 .

(4) ابن خرداذبة ، نفسه ، ص 165 .

(5) ابن خرداذبة ، ص 167 .

(6) ابن خرداذبة ، ص 168 .

(7) ينظر عمر بن منصور بن محمد، ابن الوردي ، العجائب وفريدة الغرائب ،( بيروت ، داراحياء التراث العربي: 1978) :42/1؛ محمد بن عبد المنعم ، الحميري، الروض المعطارفي خبر الاقطار ،تحقيق احسان عباس ( بيروت ، مؤسسة ناصر للثقافة : 1980):310/1.

وسماع سلام الترجمان [1].في الوقت الذي بدا ياقوت الحموي وهو ينقل لنا رحلة سلام الترجمان عن ابن خرداذبة انه غير مصدق للقصة فيقول بعد حديثه عن السد وقصة سلام ( قد كتبت من خبر السد ما وجدته في الكتب ولست اقطع بصحة ما اوردته لاختلاف الروايات فيه والله اعلم بصحته ) [2] ، اما ابن بطوطة فينكر ان احدا قد راى السد اوسمع من احد قد راه بقوله( ولم ار بتلك البلاد من رأى السد ،ولا من رأى من رأه)[3]

ولو عدنا الى سيرة ابن خرداذبة محاولين معرفة اثر الاعداد المسبق لصاحب الرحلة على وصفه والتي طغى عليها اسلوب التشويق وتهويل المواقف التي ادعى انه شاهدها اوسمعها ،لنجد ان طبيعة عمله بوصفه من سمار الخليفة المعتمد على الله (ت:279هـ/892م) اسهم في تلك المبالغت التي رافقت تلك الحكايات ، وغالبا ما يكون جانبا من عمل السمار للخلفاء هو في البحث عن النوادر من الاخبار العجيبة والطرائف من القصص الغريبة كي يقصها على الخليفة والتي يكون فيها عنصرا التشويق والاثارة واضحا من اجل اسعاده او التخفيف عنه ،غير مكترث كثيرا بصحة نقولاته، واذا ما علمنا ان ابن خرداذبة كان قد الف كتبا في الشراب والملاهي لعلمنا مدى عدم دقة الرجل في النقل فضلا عن كونه غير متخصص في الرحلات ولم يكن رحالة في يوم من الايام ايضا ، فضلا عن ان من ترجم له يصفه على ( إنه كثير التخليط، قليل التحصيل) [4].لذا من المهم قبل الاخذ عن الرحالة رواياتهم العودة الى سيرهم الذاتية التي تسهم بدور كبير في تحديد ملامح شخصياتهم .

## روايات تاريخية لدى رحالة جمعت بين الحقيقة والاسطورة

وثمة رحلات اخرى كانت اكثر توخيا للحقيقة نسبيا مما سبق اذ تباين منهجها في تدوين رحلاتها في مدى اعتمادها معلومات دقيقة وعلمية من جهة وقبولها في الوقت ذاته ماهو اسطوري اوخيالي من جهة ثانية على الرغم من تأكيدها في مقدمات كتبها تحريها الحقيقة من مصادرها الاصلية ، إذ ان اعمال الخيال بدا واضحا عند عدد منهم مع وجود ثوابت وحقائق تداخلت معها لتجمع بين ما هو غث وسمين ، كما هو الحال مع رحالة كابن فضلان [5]و المقدسي ، ومسعر بن المهلهل [6].

ففي رحلة ابن فضلان إلى ملك الصقالبة عام ( 309 هـ / 921 م ) والتي جاءت بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله(ت:320هـ/932م) ،بعد ان ارسل ملك الصقالبة للخليفة كتابا يطلب منه ان يرسل له من

---

(1) عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ابن الجوزي، المنتظم: في تاريخ الملوك والامم ، تحقيق محمد مصطفى عبد القادر عطا ،( بيروت ، دار الكتب العلمية :1992):1/297،294.

(2) شهاب الدين ابي عبد الله ، ياقوت الحموي، معجم البلدان،(بيروت داراحياء التراث العربي:د.ت):5/30.

(3) محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي، ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الامصار المسماة برحلة ابن بطوطة، تحقيق علي المنتصر الكتاني ( بيروت ، مؤسسة الرسالة :1405هه):2/724.

(4) صلاح الدين بن ايبك ، الصفدي، الوافي بالوفيات ، تحقيق،سن دريد رينغ ، بيروت ،دار احياء التراث العربي:1997):6/301؛ الزركلي، خير الدين ،الاعلام ، قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين( بيروت،دار العلم للملايين:1979) :4/190.

(5) أحمد بن فضلان ،رسالة ابن فضلان ، تحقيق : سامي الدهان ، ( دمشق ، مطبوعات المجمع العلمي العربي :1959) ، ص 3 ؛ أبو القاسم بن حوقل النصيبي ، صورة الأرض ، ( بيروت ، مكتبة دار الحياة : 1979 ) ، ص 5 .

(6) محمد بن أحمد بن أبي بكر ، المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ( ليدن ، مطبعة بريل : 1909 ) ، ص 4 .

يفقهه بالاسلام وهو حديث عهد به ويسانده ضد اعدائه ، فأختير احمد بن فضلان على راس الوفد الذي ضم الفقهاء والعلماء والمعلمين لهذه المهمة ، وكان ابن فضلان في أول امره من موالي محمد بن سليمان الحنفي والي مصر ، ثم أصبح من موالي الخليفة المقتدر العباسي ولانعلم عن اسماء شيوخه اوتلاميذه[1]. ولم يعلم لما انتدب دون سواه لهذه المهمة علما ان اسمه لم يذكر لا في كتب الطبقات ولا التراجم الخاصة بالفقهاء او الحفاظ،في وقت لم يعرف عنه انه يجيد لغات ذلك المكان الذي قصده وقد عبر عن ذلك في حديثه عن وجود مترجم للملك ينقل ما يقوله ابن فضلان [2] وفي اكثرمن مناسبة نجد استدراكات وتعجب ابن فضلان مما راه كا يدور من خلال سؤاله للترجمان الخاص بالملك [3] ،لقد اتسمت روايات ابن فضلان وهو يصف مشاهداته للحياة الاجتماعية للمدن والقرى التي مر بها وهو في بلاد المسلمين من وصف منطقي ، الا انه ما ان خرج من بلاد المسلمين ونفذ الى بلاد غريبة وبعيدة حتى نجده يطلق العنان لخياله الخصب ويسهب في وصف الظواهر ومنها المناخية على وفق تصورات جاءت متناغمة مع ما رواه شعوب تلك المناطق ولاسيما الصقالبة الذين نقلوا تصوراتهم لتلك الظواهر اليه وهو مستغربا تارة ومصدقا تارة ثانية، ومنها ما نقله وشاهده من احمرار للسماء عند اول نزوله في بلاد البلغار ودهشته الشديدة لما راه من مناظر مخيفة رسمها خياله،ثم يصف دهشته عند سماعه لأصوات تخيل انه سمعها من السحاب ، فإذا هو غيم أحمر يرى فيه أمثال الناس والدواب قد شكلت وهم يقتتلون في كل مساءكماروى له ملك الصقالبة نقلاعن حكايات اجداده [4].

وليست تلك القصص الا تخيلات وأوهام تراءت له فحسبها حقيقة ، بل كانت ظواهر طبيعية تتعلق بطبيعة المناخ هناك وتداخل الغيوم ببعضها والتي لم يسبق له ان شاهدها بتلك الكثافة في بلاده ، ،الا انه فسّرها تفسيراً خرافياً تحدث فيها عن اشكال وصور تراءت له في هيئات مختلفة نقلها من أساطير قديمة يعتقدها اهل تلك البلاد ، ومن الغريب أن ابن فضلان خرج إلى بلاد البلغار بايفاد من الخلافة ومعه وفد من الفقهاء والمعلمين والذي لم نجد ذكرا لرأيهم لهذه الظاهرة وكأنه صدقها وحده اواعتقد بها [5] وقد يندهش المرء وهو يقرا رحلته والمهمة التي كلف بها وهي دعوة امم تلك البلاد الى الاسلام ليحررها من معتقداتها الخاطئة فاذا به يؤمن بخرافاتهم وما ينقل عن اساطيرهم وكانه نسي ما جاء من اجله ، كما يروي قصصا اخرى في امكنة اخرى قصدها وهو في طريقه، والتي تتلاحم فيها عناصر الخيال والاسطورة معا بعد ان سمع تلك الحكايات من كبار القوم من سكان الاماكن التي مر بها وهي عكست طبيعة معتقداتهم وتصوراتهم نسجتها تخيلات واهواء اناس لم يصلها االمسلمون و الفاتحون الاوائل [6] ان عدم جود ذكرا لابن فضلان في كتب الطبقات او التراجم الخاصة بالفقهاء زاد من ترجيح كونه لم يكن فقيها اوعالما اوداعية ، بل كان يمتلك مؤهلات ثقافية عامة للمسلم في موطنه كما بدا من حديثه .

وإذا ماتأملنا في رحلة المقدسي ( ت:380هه/990م ) الذي خرج تاجراً إلى جزيرة العرب ، ثم قصد بلاد فارس ثم العراق والشام مرورا بمصر فالمغرب [7] وعلى الرغم من اعتماد مروياته في الرحلة من قبل العديد من

---

(1) الزركلي ، المرجع السابق :195/1.

(2) ابن فضلان ، المصدر السابق، ص68.

(3) ابن فضلان ، المصدر نفسه، ص68.

(4) ابن فضلان ، المصدر نفسه، ص 123 .

(5) ابن فضلان ، المصدر نفسه ،ص 67 .

(6) ابن فضلان ، المصدر نفسه، ص 138 .

(7) المقدسي ،المصدر السابق ، ص 133 .

الرحالة الذين اتو من بعده ،فضلا عن وصفه لمنهجه في تدوين الرحلة وهو يتحرى الدقة في نقل الخبر والتي وردت الاشارة اليها في مقدمة كتابه احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم وجدناه اكد تحريه الحقيقة بمختلف الوسائل ومنها قوله (وما استعنت به على بيانه سؤال ذوي العقول من الناس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدت عنها، ولم يتقدر لي الوصول إليها. فما وقع عليه اتفاقهم أثبته، وما اختلفوا فيه نبذته. وما لم يكن لي بد من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته. وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره أو قلت زعموا. وشحنته بفصول وجدتها في خزائن الملوك) [1].الا اننا وجدنا في مصنفه اكثر من رواية تناولها وهي لاتتفق في العديد من مفاصلها مع الثوابت التاريخية او العقلية ، وعلى الرغم من ذلك لانجده يعلق اويشكك بها،و منها ما يرويه من روايات خيالية عن حادثة كانت في نواحي جرجان اذ يذكر ان فيها بئرا يرى فيه عجائب ومما جاء فيه (نواحي جرجان بئر تظهر فيه شجرة كل سنة ثم تغيب وقد احتال بعض السلاطين وشدها بالسلاسل الغليظة ففكتها وكسرتها وغابت)[2].كما نجده وفي اماكن اخرى يصور لنا الظواهر كما يسمعها من المكان الذي يمكث فيه دون تمحيص اورفض لتلك الاخبار ، وهكذا نجد ان الرحالة التاجر احيانا يختلف في درجة قبوله لتفسير الظواهر من رفضها ،عن الرحالة العالم او طالب العلم او الجغرافي المتخصص، لتبقى مسألة التباين المعرفي لدى الرحالة اساسا في كثير من الاحيان في تحديد طبيعة قبولهم وتحليلهم لكل ما يشاهدونه او ما ينقلونه،

ونجد عند الرحالة مسعر بن مهلهل ( ت:390هـ / 1000م ) شكلا مشابها لهذا النمط من الرحلات من حيث رواية الخبر في عدم تحريه الدقة وفي احيان اخرى يمتزج لديه ماهو تاريخي مع ماهو خيالي ،ولو عدنا الى سيرة هذا الرحالة فقد نتعرف عاى اسباب ضعف الدقة في الرواية التاريخية لديه ، اذ عرف انه كان شاعرا وأديباً [3] ،وللشعراء احيانا خيال خصب واسلوب مشوق في الطرح ، رحل وطاف في بلاد فارس وأذربيجان ، الا ان ما وصلنا من رحلاته هو ما نقله ياقوت الحموي،اذ لم نقف على مؤلف باسمه [4] ، إذ ينقل عنه هذا الرحالة الكثير من العقائد التي يختلط فيها السحر بالخوارق والتي يرفضها ياقوت بعد ذكرها ، ومنها ما روي عنه من قصص وهي كانت بمثابة اساطير سمعها من اهل البلدة التي مر بها ،منها على سبيل المثال ما ورد في خبر جبل يدعى دُنباوَند وما قيل فيه من اعاجيب اذ اورد ياقوت الحموي نقلا عنه قصصا عديدة في هذا الباب[5] ، وبدا هذا الرحالة مصدقا لما سمعه عن ظواهر عديدة اخرى لاتقل غرابة عن سابقتها في ذلك المكان [6]. فضلا عما اورده في زيارته لبيت الذهب الموجود في أرض مكران وقندهار ، وهذا البيت كما يروي عنه ابن النديم ( مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة ، ولا يصل اليه إلاّ العبُّاد) [7] ، وأنه معلق بين الأرض والسماء دون أن يرتكز على عمد [8] . ولديه العديد من هذه الروايات والتي يحاول أن يربط بها بين الرموز والأشكال والتكهنات ،

---

[1] المقدسي ، المصدر السابق ،ص 1 .

[2] المقدسي ، ص 133 .

[3] الزركلي ، المرجع السابق : 216/7 .

[4] ياقوت الحموي ، المصدرالسابق:316/4.

[5] ياقوت الحموي ، المصدرنفسه:316/4.

[6] ياقوت الحموي ، المصدر نفسه: 317/4.

[7] محمد بن اسحق ، ابن النديم ، ( بيروت ، دار الاستقامة : 1964 ) ، ص 346 .

[8] ابن النديم ، المصدر نفسه ، ص 346 .

وغالباً ما يعتقد بها أو يؤيدها على الرغم من تعارضها مع ثوابت الثقافة التي ينتمي إليها سوى ان يكون القصد منها ذكر الطرائف والغرائب على حساب الحقائق التاريخية [1] .

ومن الامثلة الاخرى على رحلات اختلط الرواية التاريخية الصحيحة بالخيال او الاسطورة ما جاء في رحلة علي بن أبي بكر بن علي الهروي (عام 611 هـ / 1215 ) ذلك الرحالة الذي ولد في الموصل ثم انتقل منها الى حلب حيث نشأ على التصوف ووحب سماع سير الاولياء والصالحين مما شجعه على قصد اماكن مثواهم في رحلة سائحا باحثاً عن الأماكن الدينية والأضرحة والقبور بعد ان انطلق من مدينة حلب متوجها الى بيت المقدس ثم الى مصر وبلاد المغرب ثم توجه منها الى صقلية والقسطنطينية ثم العراق فالحجاز ثم اليمن اليمن ثم بلاد فارس [2] ، إذ كان الهروي مغرماً بالأسفار، وهو من أولئك الرحالة الذين يطلقون العنان لخيالهم وقبولهم مختلف القصص التي يسمعونها او يتخيلونها دون أن يشككوا في صحتها ، وهذا ما بدا واضحا في وصفه لقرية براق [3]،اذ نسج خياله الكثير من الحكايات الخرافية على أنها كرامة روحية متعجبا، والهروي كما وصفه من ترجم له ومنهم الذهبي بقوله فيه على انه(كان حاطب ليل دخل في السحر والسيمياء ونفق على الظاهر صاحب حلب، فبنى له مدرسة، فدرس بها وخطب بظاهر حلب، وكان غريبا مشعوذا، حلو المجالسة). [4].فلا عجب ان تكثر مثل تلك الاساطير في رحلته.وصورة اخرى تظهر فيها الاساطير جلية ،برزت من خلال مصنفين اثنين في الجغرافية والرحلات لزكريا بن محمد بن محمود القزويني(ت:682هـ/1283م)،. وهو مؤرخ وجغرافي ، وُلد ونشأ بقزوين، ثم رحل متجها إلى العراق ومنه الى الشام زمن الخليفة العباسي المستعصم بالله[5]. وترجع شهرة القزويني إلى كتابيه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات والذي قيل فيه (قد ذكر فيه أشياء ياباها طبع الغبي الغافل) [6] ،في وقت اقتصر ذكر عند حاجي خليفة على ان المؤلف يشتمل على ماهو غث وسمين [7] ، والكتاب الثاني هو آثار البلاد وأخبار العباد ،وفي هذا الكتاب ، اهتم المؤلف باحوال اهل البلاد التي وردت في كتابه اكثر من اهتمامه بالمسالك والطرق، اذ قَسّم الأرض إلى سبعة أقاليم واصفا ما يحتويه كل إقليم من بلاد ومدن وجبال وجزر وبحيرات وغيرها تبعًا لترتيب حروف المعجم، وقد تأثر القزويني كثيرًا بمعجم ياقوت الحموي وحاول ان يكون لكتابه صدى لكتاب معجم البلدان ، الا انه لم يكن يمتلك منهجية الحموي في التوثيق لكثرة ما حوى كتابيه من قصص واساطير وخوارق من الاخبار بالغ في البحث عنها وتدوينها دون تمحيص،منها وهو يصف اماكن بعيدة وجزر زارها في الهند والصين ، وذكره احوال اهلها التي كادت ان يغلب عليهم الغرائب من الحكايات والعجائب من القصص ،ولاسيما ماذكره عن جزيرة تقع في بحر الصين ، والتي اسماها جزيرة النساء واصفا اياها على انها جزيرة لايوجد فيها سوى النساء ، وان بقاءهم وتكاثر النسل فيهم يتم عن طريق تلقيح

---

[1] ياقوت الحموي ، المصدر السابق : 4 ، 43 .

[2] الزركلي، ،المرجع السابق:266/4؛ زكي ، محمد حسن ،المرجع السابق ، ص 89 .

[3] علي بن أبي بكر بن علي ، الهروي ، الاشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق : جانيني سورديل ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية : 1953 ) ، ص 7 .

[4] شمس الدين ،محمد بن احمد، الذهبي، سير اعلام النبلاء، تحقيق،شعيب الارناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي،( بيروت،مؤسسة الرسالة:2001) :57/22.

[5] الزركلي ، المرجع السابق :46/3.

[6] الزركلي ، المرجع نفسه :46/3.

[7] حاجي خليفة ،مصطفى بن عبد الله،كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون،صححه محمد شرف الدين (بيروت، دار احياء التراث العربي:د:ت):9/1.

الريح او النبات واشار الى ذلك بقوله (في بحر الصين فيها نساء لا رجل معهن أصلاً، وإنهن يلقحن من الريح ويلدن النساء مثلهن، وقيل: إنهن يلقحن من ثمرة شجرة عندهن يأكلن منها فيلقحن ويلدن نساء)[1]. وما جاء في غرائب الهند فهو كثير ،منها ما اورده عن وجود طائرا كبيرا واصفا اياه (بها طير عظيم الجثة جداً؛ قالوا: إنه في بعض جزائرها إذا مات نصف منقاره يتخذ مركباً يركب الناس فيه في البحر، وعظم ريشه يتخذ آزون الطعام ويسع الواحد منه أحمالاً كثيرة )[2].وله من ذكر الغرائب الاخرى مالاتحصى ،اذ يروي عن وجود اناس لهم ملامح واجساد البشر ووجوه حيوانات ، واخبار اخرى عن حيوانات بوجوه انسان[3]، ومن الغرابة بمكان ان القزويني شغل منصب القضاء في واسط زمن الخليفة المستعصم بالله (ت:656هـ/1258م) ، وهنا كان التعامل مع رحالة له من المؤهلات العلمية التي من المفترض ان تجعله لايقبل مثل تلك الاساطير اوتلك العجائب والغرائب من الحكايات ، وربما كان لميوله وخياله الواسع جزء من تكوينه الذاتي الذي ظل ملازما له ، مما انعكس على ثقافته الخاصة التي سهلت حبه لهذا النوع من الكتابات من خلال البحث عن كل ماهو عجيب اوغريب لا يألفه عقل الانسان، وبتصوراته والتي لاتتوافق في كثير من الاحيان مع البيئة الثقافية والمنطق الذي ينتمي اليه،كما ان عدم وجود ترجمة له لا في كتب التراجم اوالطبقات ولاسيما المتأخرة ربما كان دليل اخر على عدم الوقوف على سيرته من قبل اصحاب هذه المصنفات ،ليقتصر ذكره على كتب الفهارس التي اختصت بذكر المؤلفات واسماء الكتب اكثر من وقوفهاعلى ذكر تفاصيل عن اصحابها .

## روايات رحالة اعتمدت الاسطورة لاستكمال الفراغ الزماني في التدوين التاريخي

جاء ذا النمط من الكتابة واضحا من خلال مؤلفات جمعت في منهجها في الكتابة بين منهج التواريخ العامة من جهة وبين كتب مدونات ذات طبيعة جغرافية ومنهج اصحاب الرحلات ،اذ الزم اصحاب هذا النوع من المصنفات وهم يكتبون عن التاريخ ومنذ بداية الخليقة وحتى عصر المؤلف ان يتمموا النقص الحاصل في الفترات التي سبقت عصر التدوين او تلك الفترات الزمنية المتباعدة والتي لايمتلك اصحاب هذا النوع من المؤلفات نصوصا واضحة وموثقة تتناول الفترة بعد نزول ادم عليه السلام سوى الموروث الشفهي المتناقل او ما عرف بالاسرائيليات التي دونت على لسان عدد من رواتها كوهب بن منبه وكعب الاحبار ،وما شاب تلك الروايات من اساطير امتزجت بها الحكاية الشعبية بالموروث القديم بمعتقدات الامم السابقة واخذت دون تمحيص وتدقيق ،وتعامل معها عدد كبير من كتب التواريخ العامة ويأتي في مقدمتهم كتاب البدء والتاريخ المنسوب لمطهر بن طاهر المقدسي (ت:بعد355/966م)، والمسعودي في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر، وعلى الرغم من ما قدمه لنا المسعودي(ت:346 هـ/957م) وهو ذلك الرحالة والمؤرخ والجغرافي من معلومات تاريخية وجغرافية مهمة فضلا عن ذكره ما اعتمده من مصادر لها من الدقة والصدق الشيء الكثير لانه رحالة ساح في البلاد منذ شبابه اذ زار الهند والبنجاب وسيلان وبحر الصين ثم عاد الى زنجبار ثم الى عمان ومنها الى بغداد موطنه الذي خرج منه، فضلا عن تأكيده في مقدمة كتابه بقوله ( ماذكرنا من الاخبار في مبدأ الخليقة هو ماجاءت به الشريعة ونقله الخلف عن السلف والباقي عن الماضي فعبرنا عنهم على حسب ما نقل الينا من

---

(1) زكريا بن محمد بن محمود،القزويني، اثار البلاد واخبار العباد،(بيروت ، دار بيروت :1960 ) ،ص11.

(2) القزويني،المصدر نفسه ،ص50.

(3) القزويني،المصدر نفسه ،ص51.

الفاظهم ووجدناه في كتبهم )[1] ، الا انه وفي عمله في حقلي الجغرافية والتاريخ معا ،حاول وفي العديد من المواقف ومن اجل سد النقص في تسلسل الاحدث احيانا ان يلجا الى اقتباس قصص قيلت اوذكرت عن اناس عاشوا في تلك البقاع ، وغالبا ما تكون غير موثقة محاولة في سد الفراغات التاريخية وهذا امر غير مسوغ،وهكذا نجده لايدقق كثيرا في صدق بعض الحكايات الشعبية اوتلك القصص المقتبسة من رحالة لم يشهد لهم بالتخصص او الصدق فيما ينقلونه في مجال الرحلة او الجغرافية فضلا عن الروايات التاريخية التي نقلت عن الاسرائيليات ، وهذا ما بدا واضحا في العديد من الحالات ومنها ما جاء في تناوله لتاريخ الامم الغابرة او اماكن وجودهم، كما ورد في خبر من خرج مع موسى عليه السلام في التيه ،اوفي تلك الاخبار التي تتعلق بالاسكندر الكبير ،وغيرها من النوادر والملح والغرائب من القصص التي كانت تظهر في اثناء كتابه مروج الذهب [2]،وعلى الرغم مما قيل فيه كونه اخباريا وعلى دراية بالاحداث، الا ان من ترجم له ذكروا انه يروي الغرائب النوادر من الاخبار ، وفي ذلك يقول الصفدي وغيره انه كان: صاحب غرائب وملح ونوادر من الاخبار[3]، في الوقت الذي كان ابن خلدون (ت:808هـ/1406م) قد رصد العديد من تلك القصص غير الواقعية التي وردت لدى المسعودي وفندها في مقدمته المشهورة ، في وقت شعر ابن خلدون بضرورة وضع معايير وضوابط خاصة للروايات التاريخية الصحيحة والتي يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار في رصد ما هو تاريخي وما هو غير تاريخي وهو يقدم منهجا في كتابة وتوثيق التاريخ [4] .

## روايات تاريخية في رحلات خلت من الاساطير

تكاد الروايات التاريخية التي وردت في اثناء الرحلات وهي تتحقق من صحة الخبر محصورة في عدد من الرحلات تميز اصحابها بكونهم طلاب علم اوعلماء قصدوا الاطلاع على المعارف في البلاد والحواضر العلمية ، وغالبا ماكان اصحاب هذه الرحلات على درجة عالية من الوعي فيما يكتبون به وتجسد ذلك في كتابات كل من البلاذري ، واليعقوبي ، والاصطخري،فضلا عن البيروني والادريسي، وياقوت الحموي، وابن جبير .

فقد عرف عن اليعقوبي (ت: 292 هـ / 905 م) وهو يتحدث من خلال كتابه " البلدان " ، عدم اكتراثه بقصص واساطير البلاد القديمة او ما يحكى عنها من غرائب بقدر اهتمامه بامور تتعلق بحساب المسافات بينها وبين غيرها من الاماكن، وطبيعة الانشطة الاقتصادية المختلفة، ورسم للاماكن ووصف للطرقات دون زيادة ، اذ عرف عنه جغرافيا ومؤرخا ورحالة في الوقت نفسه ،لذا جاءت اهتماماته موافقة مع تصوراته للتوثيق الخاص برحلاته ، لتكون رحلاته تكاد ان تخلوا من الأساطير ، وهناك رحلات اخرى يمكن ان تدرج ضمن هذا المستوى من الرحلات التي تتحرى الدقة في الوصف او في نقل الخبر قام بها جغرافيون غايتهم معرفة الخطط والمواقع الجغرافية وحدود الأقاليم وطبيعة البلاد المفتوحة لحساب موارد بيت المال ،منها تلك الرحلات التي جاءت

---

[1] علي بن الحسين بن علي، المسعودي ،مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به يوسف البقاعي ( بيروت، دالر احياء التراث العربي:د.ت) :23/1 .

[2] الصفدي ، المصدر السابق :362/6؛ الذهبي ، المصدر السابق:569/15.

[3] الصفدي ، المصدر السابق362/6؛ الذهبي ، المصدر السابق:569/15.

[4] عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ،( بيروت،دار احياء التراث العربي :د.ت) ص28-34.

بتكليف من قبل ولاة الخلفاء في الامصار ، كما حصل مع احمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت:279 هـ / 892م) [1]في كتابه فتوح البلدان ،ولو عدنا الى سيرة هذا المؤرخ والجغرافي البارع لوجدنا انه نشأ طالبا للعلم ،ثم قريبا من بلاط الخلفاء ،بعد ان افاد من رحلته في طلب العلم التي اكسبته ثقافة جمة في البلاد الاسلامية ،اذ أخذ كثيرا عن أهل دمشق وحمص ومنبج والرقة والثغور وأنطاكية أخبار فتوحهم وأثبتها في كتابه فتوح البلدان، واعانته تلك المعلومات في التصنيف في هذا المجال المعرفي عندما عمل لدى والي مصر ،وقد كان لشيوخه ،وثقافته الخاصة ورحلاته وتردده على قصور الخلفاء أثرا في نتاجه العلمي.فقد افاد بطريق ابن سعد جمع روايات الواقدي في الفتوح.واستفاد من المدائني نفسه في رواياته التي وردت في كتبه الكثيرة في الفتوح واخبار البلدان.وأخذ بطريق حفيد ابن الكلبي ما رواه جده في الانساب.وأخذ عن القاسم بن سلام أمور العشر والخراج.فكان بعد ذلك مؤرخا للبلدان،عالما بحساب الاموال الخراجية واموال بيت المال، كما عرف عنه كونه نسابة، وراوية شاعرا، وقد كانت رحلته هذه وسيلة لاكتسابه ثقافة جديدة أفادته في كتابه فتوح البلدان والذي كان كتابا امتاز بدقة رواياته التاريخية ما يؤكدها كبار المحققين، فضلا عن اعتمادها من قبل اصحاب كتب الاموال ،والفقه ،والتاريخ لمن جاء بعده من اصحاب المؤلفات المعتمدة [2].وكذلك الحال مع أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأصطخري (ت:346هه/957م) ذلك العالم والجغرافي والرحالة الذي يشهد له من ترجم له بالدقة والعلم وتحري الروايات[3] والذي طاف البلاد فلا نجد في كتابه المسالك والممالك ،والذي يتفق من حيث العنوان مع ابن خرداذبة ويختلف من حيث الدقة في التوصيف في ما يتعلق بمعرفة المسافات بين المدن والقصبات دون الدخول في قصص واخبار تلك البلاد التي يمر بها ، ولاسيما ما هو اسطوري او خرافي منها ،وما اخذه عنه ياقوت في الكثير من اخبار البلاد والاماكن التي وردت في معجمه دليل على دقة وصفه لها وتحريه التوثيق للخبر، لابل كان من بين الاكثر حضورا في رواياته عن اخبار البلاد، في وقت كان اعتماده على روايات رحالة اخرين جاء من خلال انتقاء الصحيح منها اذا ما قورنت بروايات الاصطخري، كما ان الروايات التي يشكك بها ياقوت غالبا مانجد يأتي ذلك متفقا مع تشكيك الاصطخري بها [4] ،وهكذا يختلف تصور الرحالة في وصف الظواهر تبعا للثقافة والمهنة التي يزاولها فتاتي رواياته التاريخية موازية لمؤهلاته العلمية وخصاله .

كما أن هناك من الرحالة من لم يكتف برفض الأساطير والحكايات الخرافية بل فنّدها كما هو الحال مع رحالة وجغرافي كالبيروني [5] ذلك الرحالة الذي تجول في أنحاء الهند سنة( 362 هـ / 973 م)ومكث مدة أربعين سنة ، فأطلع على عادات وتقاليد أهلها ودرس أحوالها الجغرافية والطبيعية والاقتصادية ، والذي صنّف رحلته الموسومة بـ " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " تلك الرحلة التي عكست التوصيف الدقيق للحياة العامة في الهند والدينية منها على وجه الخصوص،ولو عدنا الى سيرة هذا الرحالة فنجدها تاتي موافقة لمنهجه الرصين في الرحلة ،اذ يصفه الصفدي( كان مكباً على تحصيل العلوم ولا يكاد يفارق القلم يده ولا

---

[1] البلاذري ،المصدر السابق ، ص14.

[2] البلاذري المصدر نفسه ، ص15؛ ينظر علي بن محمد بن حبيب،الماوردي ،الاحكام السلطانية والولايات الدينية (بغداد،دار الحرية :1989)،ص78 ،103 ،127.

[3] الزركلي، ،المرجع السابق:61/1.

[4] ياقوت الحموي ، المصدر السابق :58/3، 80،95، 118.

[5] أبو الريحان محمد بن أحمد ، البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، ( الهند حيدر آباد الدكن : 1958 ) ، ص 49 .

عينه النظر في الكتب وقلبه الفكر )[1] ، فرحلته تكاد تكون خالية من تلك الأساطير او الحكايات الخرافية ، لا بل حاول أن يفند الأقاويل التي كانت شائعة في تلك العصور والتي لاتنسجم مع ثوابت الثقافة الاسلامية التي يمثلها ويشكك في الروايات الضعيفة منها [2]، وهنا نجد وقوفه على معتقدات العوام من تلك البلاد ، وهو مؤشر مهم على نقد الخرافة في الرحلة إذا ما تعرض لها " [3] ، كما أن وصفه للعادات والأديان في الهند وطبيعة التقاليد الاجتماعية بمختلف مفاصلها ورموزها كانت محاولة نقلها والتعريف بها فقط ،ولم يحاول تصويرها ايمانا اوتصديقا بها كما يبدوا لقارئها البسيط ، بل كان شارحاً لتقاليد وعادات تلك الشعوب ، محاولاً أتمام نقل ما لديهم من ارث ثقافي أو سلوك معين بوصفه شاهدا موضوعيا وناقلاً لصورة التفكير بمختلف مستوياته والمتعلقة بالحياة والموت والانسان في تلك البلاد وقارئا لعلومهم وطرائق تفكيرهم كما عرفهم طيلة مكوثه بينهم [4] .وفي رحلة ناصر خسرو ( ت: 431هه/1039م)[5] الى الحج صورة اخرى للرحلات والتي تدرج ضمن الرحلات التي تحمل في طياتها ما هو تاريخي وجغرافي موثوق من خلال القرائن التاريخية وتكاد رحلته تخلو من الوصف الاسطوري ، فضلا عن عدم تسليمه لحكايات وقصص اسطورية سمعها وهو يدون عن تلك الاماكن التي مر بها من قبل اهلها ، فهذا الرحالة الذي احترف العمل الاداري فترة من الزمن مع السلاطين السلاجقة في ديوان الانشاء، ثم اوكلت له مهمة حساب الاموال وجبايتها لدى السلاجقة ،وهذه المهمات تتطلب من صاحبها دقة وتوثيقا لكل صغيرة وكبيرة ،انعكست بالتالي على وصفه لمشاهداته في طريق رحلته الى الحج ليصف الاماكن التي مر بها ،ففي وصفه مثلا لبحيرة طبرية والتي تقع عليها مدينة لوط كما جاء بالرحلة والتي لم يبق منها اثر قط –كما يروي –سوى وجود نوع من الحجارة السوداء غير الصلبة كما يصفها ،يخرج من قاعه فيأخذه السكان ويقطعونه ويحملونه الى المدن ،وحين سأل عن جدوى اخذ تلك الحجارة ،قال له الناس ان فيها قوة غريبة من بينها انها اذا ما وضعت قطعة منها تحت اشجارهم يمتنع الدود عنها من غير ان يمس جذورها اذى منه ( فلا يتلف البستان مما تحت الارض من دود وحشرات والعهدة على الراوي ) [6] ، ثم نجده يورد التسميات غير الصحيحة للاماكن ويصححها احيانا ،ولانراه في اكثر من مناسبة يسلم بصحة الروايات التي يسمعها من ابناء تلك البلاد التي مر بها بل يضع العهدة على الراوي كما يقول .واذا كنا في صدد الحديث عن هذا المستوى من الروايات الدقيقة في الرحلات فلا ننسى رحالة وجغرافي مرموق كمحمد بن محمد الادريسي(ت: 560 هـ/1165م) ذلك المؤرخ والجغرافي المتميز كما وصفه من ترجم له [7] اذ نشأ في بيت ملك وعلم في بلاد المغرب ،وكان الإدريسي قد انتهى إلى جزيرة صقلية، تلبية لدعوة صاحبها: رُجَّار الثاني (ت 548هـ/1153م) والذي دعاه بعد ان سمع عن سعة علمه ،ثم طلب منه ان يضع له صورة للعالم، فصنعها له من الفضة على هيئة دوائر كهيئة الأفلاك، ركّب بعضها على بعض، وأقامها على الوضع المخصوص.وتعجب صاحب الجزيرة

---

[1] الصفدي ، المصدر السابق :69/3.

[2] البيروني ، المصدر السابق ، ص 50 .

[3] البيروني ، المصدر نفسه، ص 51 .

[4] البيروني ، المصدر نفسه ،ص51.

[5] اسماعيل باشا بن محمد امين بن مير سليم الباباني، البغدادي، هدية العارفين ، اسماء المؤلفين واثار المصنفين ،(بيروت داراحياء التراث العربي:د.ت):181/1.

[6] ناصر خسرو ،سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب ، ( بيروت ، دار الكتاب الجديد :1983) ص53، 57.

[7] محمد بن عبد الله بن ادريس ، الادريسي ،نزهة المشتاق في اختراق الافاق ( بيروت ، عالم الكتب :1989 ) ،81؛ الزركلي ، المرجع السابق:24/7.

بذلك وأطمعه بالبقاء في بلاطه لشرفه وغزارة علمه ودقته في وصف الاماكن ، [1].وغالبا ماكان الادريسي في كتابه نزهة المشتاق يتجنب الخوض في القصص والحكايات غير الموثوق بها، او تلك التي تتعلق بالموروث الحكاياتي القديم ، ففي حديثه مثلا عن جزيرة جالوس وبعد ان وصف احوال وعادات اهلها يقف امام الحكايات التي لايجد ضرورة لذكرها او تدوينها مكتفيا بقوله فيها ( وفي هذه الجزيرة عجائب يقع واصفها في حد التكذيب) [2].

أما ياقوت الحموي في رحلته عام (574 هـ / 1178 م ) التي دامت ستة عشر عاماً يجوب فيها البلاد تاجراً ومؤرخاً وجغرافياً، فهو لم يقل دقة وتحريا للخبر عن البيروني والادريسي وغيرهم ممن وضع ضمن الرحلات التي تميزت بدقة رواياتها ، مبتعداً عن ذكر الاساطير والحكايات الخرافية والأعاجيب الغريبة ، اذ كان يوصف على انه مؤرخ وجغرافي ثقة، ذلك الصبي الرومي الذي جاء مع الاسر وبيع في بغداد فاشتراه احد التجار وهو عسكر بن نصر و كان مولاه التاجر لايعرف الكتابة اوالحساب ، فأرسله الى الكتاتيب ليتعلم الحساب ليتولى حسابات تجارته بعد ان رأى أمانته وحسن سيرته الا انه زاد في ذلك ان تعلم اللغة والنحو ثم عمل في التجارة لديه ، ثم تنقل في البلاد وشاهد ما بها من مظاهر للحياة ،،ثم اعتقه مولاه فعمل في النسخ للكتب وقد ازداد معرفة بالعلوم والتواريخ من خلال المطالعة التي قدمتها له هذه المهنة ، ثم مالبث ان عاد الى التجارة بمساعدة مولاه الذي كان قد اعتقه فسافر وتاجر، واسهمت القراءات ، فضلا عن السفر في نشأته كرحالة وجغرافي ومؤرخ متميز انعكس ذلك على طبيعة ما دونه في مصنفه معجم البلدان ، ومن خلال ما جاء في مصنفه الكبير هذا نجد ان التحقيق والتدقيق في صحة الخبر كانت سمة عامة طغت على منهجه[3]، ونادرا ما يحاول سرد القصص والتي تتداخل فيها الأسطورة بالواقع من خلال ذكرها نقلاً عمن سبقه دون تصديقه بها اجمالاً وتفصيلاً ، إذ غالباً ما ينقلها وهو مرتاب في هذا النقل ،بقوله ( وفي أخبار قصاص المسلمين أشياء عجيبة تضيق بها صدور العقلاء أنا أحكي بعضها غير معتقد لصحتها )[4] ، ففي حديثه عن جبل دنباوند والذي مر ذكره والذي اشكل على الرحالة كثيرا بين مصدق لقصصه ونافيا لها ومن بينهم ياقوت ،اذ نجده لايكتفي بالتشكيك بصحتها من خلال رواية اخرين بل يروي مايفندها[5]، وللاصطخري قصة مشابهة عن الاساطير التي حيكت عن هذا الجبل ويسميها خرافات[6]، كذلك الحال مثلا في حديث ياقوت عن احدى قرى حلب وما سمعه فيها من اعاجيب وغيرها من القصص التي يتردد احيانا في ذكرها اذا ما وجدها لاتتوافق مع المنطق او الواقع اذ نجده يستهجن ما قيل من أساطير وحكايات في حديثه للحكايات التي نسجت من خلال ادبيات تلك البلاد [7] .

واذا ماكان الحديث عن الروايات التاريخية لكتب الرحلة والتي كان التوثيق والدقة سمة عامة في منهج اصحابها، فلابد من ذكر رحلة محمد بن احمد بن جبيرالكناني (ت:614هه/1218م) ،ذلك الشاب الذي نشأ في

---

[1] الزركلي ، المرجع السابق:24/7.

[2] الادريسي ،المصدر السابق ، 81

[3] ابن خلكان ،ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق احسان عباس( بيروت ،دار صادر:1994):127/6؛ الزركلي، ،المرجع السابق:131/8.

[4] ياقوت ،المصدر السابق :29/1.

[5] ياقوت ،المصدر نفسه:287/3.

[6] الاصطخري،المصدر السابق :ص72.

[7] ياقوت ، المصدر السابق:324/6.

بيت علم ،وطلب ورواية للحديث والحفظ ثم اجازته من قبل العلماء في القراءت والحديث وضلوعه بالادب [1] والتي انعكست على طبيعة حياته ومن خلال مدوناته ولا سيما وهو يروي رحلته الاولى الى المشرق عام (578هـ/ 1183م) حين خرج حاجا من بلاده الاندلس الى بيت الله الحرام ،في تثبته من الروايات والاعتماد كثيرا على مشاهداته وعدم التسليم بالقصص والحكايات المشكوك في صحتها ،. فغالباً ما نجده يورد عبارة ( والله أعلم،أو عبارة يقال ، يذكر ) عندما يبدو غير مصدق للروايات اوغير موقن بها تلك التي يسمعها من اهل المدينة او الكورة ،ولا سيما عند تناوله لقصة أو رواية كان قد سمعها ويعود تاريخها إلى الفترات الموغلة في القدم كما جاء في وصفه لاحدى قلاع بلاد الشام ،ومنها قلعة حلب تحديدا اذ يورد فيها ( أن من شرف هذه القلعة أن يذكر . أنها كانت قديماً في الزمان الأول ربوة يأوي إليها ابراهيم الخليل ، عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم ، بغنيمات له فيحلبها هنالك ويتصدق بلبنها فلذلك سُمِّيتْ حلب ، والله أعلم"[2]

وتبقى هناك معايير هامة يجب على المتخصص وهو يتحرى النصوص لابد من اعتمادها حين تاتي الرواية من كتب الرحلات بوصفها احدى المصادر الهامة في اغناء المعرفة التاريخية .

## روايات الرحالة ومكانتها في التوثيق التاريخي

ان قيمة المؤلفات التي تدرج بوصفها كتبا مساعدة لكتب التواريخ كونها احدى انماط التدوين للتاريخ ومن بينها كتب الرحلة فأنها تستمد دقة نصوصها التاريخية لتعتمد من خلال جملة اولويات ، منها الى أي مدى جاءت رواياتها متوافقة زمانيا ومكانيا وسياسيا مع ما موجود في كتب التواريخ المعتمدة ، فضلا عن قوة التوثيق التي لها علاقة مباشرة بأسم صاحب الرحلة ومؤهلاته العلمية ، ناهيك عن طبيعة واهداف الرحلة التي يمكن من خلالها معرفة دوافع المؤلف ومدى حرصه على دقة المعلومة من عدمها ،يضاف الى ذلك ان قيمة الروايات التاريخية التي ترد في كتب الرحلة قد تكون لها قيمة مهمة عند كتاب دون اخرين ، فنظرة الاديب الى روايات الرحالة هي غيرها بالنسبة للجغرافي وهي بالتالي تختلف عن نظرةالمؤرخ الحصيف اليها،الا ان الروايات التاريخية التي حوتها كتب الرحلة ولاسيما الرحلات العلمية[3] ، او تلك التي تتعلق بحساب موارد الخلافة وتصنيف الاراضي الزراعية (كتب المسالك والفتوح )ومايتعلق بها من حسابات هي الاخرى تحتل مكانة مهمة في التوثيق التاريخي ، في وقت بدت الرحلات الخاصة بين ما كان القصد منها تجاريا اوتلك التي رويت عن اخرين ،او التي تاتي بتكليف من جهات رسمية فأن مجال المبالغة في التوصيف فيها يكون كبيرا[4] –كما مر بنا– لذا لم نجد المؤرخين القدامى ممن وصفوا بالدقة والتوثيق في نقل وكتابة الاخبار ولاسيما من اعتمد منهج علم الحديث منهم في تدقيق صحة الروايات التاريخية كالطبري مثلا يعولون كثيرا على الروايات التاريخية التي يكون مصدرها نصا اورواية نقلت شفاها او كتابة عن الرحلة ، الا ان الرحلة كان لها صدى من نوع اخر في التوثيق التاريخي عند اخرين من المؤرخين ولاسيما المتأخرين منهم ولاسيما بعد ان انفرد الرحالة بذكر مشاهد ومواقف شاهدها او مر بها وانفراده بذلك الخبر دون سواه ، فيغري ذلك الامر المؤرخ لاضافة معلومة جديدة لم يذكرها اقرانه من المؤرخين في وقت كثرت الكتابات التاريخية في التواريخ العامة والتواريخ المحلية ناهيك عن ظهور

---

[1] الذهبي ،المصدر السابق :45/22.

[2] أبو الحسين محمد بن أبي أحمد ، ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، تقديم : محمد مصطفى زيادة ، (بيروت، دار الكتاب اللبناني، د.ت ) ، ص 203 .

[3] ينظر البيروني ،المصدر السابق ،ص6؛ابن جبير ، المصدر السابق ،ص73.

[4] ينظر ابن فضلان ، المصدر السابق ،ص123.

الكتب الموسوعية ، التي لم تقف كثيرا على دقة النص بقدر اهتمام اصحابها من المؤلفين بتقديم عرض اجمالي وموسوعي يغطي مدة ستة قرون اواكثر من الزمان محتويا للمعارف المختلفة في مصنفه ونجد ان موادها تجمع بين ماهو تراجم ، ونظم مالية وادارية ورسوم، فضلا عن احتوائها على مادة ادبية واسعة متخذة من التاريخ اداة في ربط تلك المعارف ، فيكون الحشو الكمي احيانا للنصوص على حساب الدقة والتوثيق الذي لايكون له متسع في عمل ذلك النوع من المصنفات، لتبقى مادة الرحلة بين مقبل عليها واخر مدبر وثالث مشكك في نصوص بعضها ولاسيما الرحلات التي عرف عن اصحابها بضعف الرواية وكثرة الخلط ،في وقت كانت تعني لاخرين من اصحاب التخصصات الاخرى غير التاريخ معينا مهما ومصدرا لكتاباتهم بما تحتويه على الرغم مما تحتويه من معلومات متفاوتة في التوصيف ودرجة الدقة .

## النتائج

وفي الختام فإن الدراسة . نطاق البحث . أظهرت ومن خلال النصوص والروايات التاريخية التي تخللت الرحلة في اثنائها، أن من الضروري بمكان تدقيق تلك الروايات قبل اعتمادها نصوصا تاريخية من خلال تأكيد اليات هامة يأتي في مقدمتها قراءة متأنية في سيرة الرحالة لاسيما مايتعلق منها بالتحصيل العلمي والبيئة الثقافية للرحالة قبل الاخذ عنه والإعداد المسبق للرحالة له أثره الهام في طريقة تفسيره وتأويله للظواهر التي يشاهدها أو يسمعها من أهالي تلك الأماكن او البلاد التي مر بها، إلاّ أن سهولة اختراقها لمؤلفات قديمة منها ومعاصرة دون تمحيص قد أسهم سلباً في غالب الأحيان في اقحام عددا من تلك الحكايات بسبب قبولها من قبل العديد من المؤرخين لهم صيت مهم في مكتباتنا والذين اعتمدوها ومن أجل استكمال ما نقص الحديث عنه زمانيا ،فأعتمدت اخبار الرحلات تلك لتفردها احيانا بذكر احداث اوتفاصيل –رغم ضعف نصوصها– احيانا والتي انفرد الرحالة اوالجغرافي في ذكرها رغم تعارضها مع المنطق والواقع.

الا ان الشكوك بروايات كتبها رحالة لايعني ترك الروايات التاريخية التي وردت في كتب الرحلة، ولكن من المهم ان تخضع نصوصها الى اليات التوثيق التاريخي ولا سيما اذا ما علمنا ان هناك ثلاث مستويات من الكتابات التي تناولتها كتب الرحلات ، فالمستوى الاول تجسد في كتابات غلبت عليها روايات محشوة بالاساطير والوصف غير المنطقي والخيالي ، اما المستوى الثاني فقد امتزج فيه ما هو حقيقي منه مع ما هو خيالي وأسطوري غير ممكن التسليم به من روايات ، ومستوا ثالثا غلب عليه صفة العلمية والدقة في وصف الظواهر والاحداث ،وبدا هذا التدرج في مستوى الروايات التاريخية في الرحلة قد انصف الرحلة ،لتبقى روايات الرحالة بعد تصنيفها رافدا مهما للتاريخ وبما تحويه من تنوع في مستوى الطرح، والتي أسهمت بشكل او بأخر في نقل مشاهدات حية قد لا نجدها أحياناً في كتب التاريخ الصرفة والتي لا يمكن الاستغناء عن الكثير منها في رسم صور الحياة بمختلف مفاصلها وحيثياتها اليومية المباشرة من تلك الاماكن التي يصعب على الناس قصدها والتعرف عليها ليكون الرحالة في العديد من الاحوال دليلا سياحيا، واخباريا وعارفا بالمسالك والطرق في الوقت ذاته يمتلك من الاخبار ما قد لانجدها عند اخرين من الكتاب.